الفصل التاسع

فى أن التملق والخضوع وبسط أعذار الناس والمبالغة فى الاعتذار إليهم وإظهار حبهم ومناصحتهم من أحسن أحوال المفلوكين وأليق الصفات بهم وأفضاها إلى مقاصدهم وبيان الدليل على ذلك

اعلم أن الناس لا يبذلون منافعهم وأموالهم سدى بغير عرض ولا علة لأن المتعالى عن وجوب تعليل أفعاله بالأغراض والمصالح إنما هو الله تعالى وإن خالفت المعتزلة فى ذلك فلابد للإحسان أعم من أن يكون نفعًا أو مالاً قولا أو فعلاً من غرض وحظ هو عند الباذل أوفى بما بذله وتحصيله عنده أحب إليه من ذلك المبذول فكما أن الشخص لا يلقى ماله فى البحر إذ لا غرض له فيه كذلك لا يضع ماله فى يد إنسان ولا غرض له فيه وذلك الغرض إما آجل وهو جزيل الثواب فى الآخرة قال ﷺ: «أيما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر الله له» وإما عاجل فى الدنيا وهو إما ترقب المكافأة بإحسان مثله نوعًا أو جنسًا أو المنة والترفع أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم أو جذب القلوب إلى طاعته ومحبته واستخسارهم أو إزالة مذمة البخل وخبثه والنفرة الحاصلة للبخلاء واستقباحهم عنه أو إزاحة حب الدنيا الذى هو رأس كل خطيئة عن قلبه أو إزاحة رقة الجنسية ورحمة النوعية عن قلبه ودفع الألم الحاصل له من الرقة بسبب سوء حال من يحسن إليه أو دفع ألم خوف حاضر أو مترقب. والاستقراء يدل على الحصر. ثم إن بعض هذه الأغراض أقوى من بعض وبعضها أدوم وأشد بيانًا من بعض فالإحسان بالوارد الأخروى قليل الثبوت والاستمرار إلا من وفقه الله تعالى وأيضًا فأعمال الخير تتقارض وينوب بعضها عن بعض والأعمال البدنية أسهل على النفوس فى تحصيل مطلوب الآخرة من الأعمال المالية وبتقدير ثبوتها فإنما

يثبت جنسها وأما انحصارها فى مفلوك بعينه فأقل ثبوتًا بل لو قيل بعدم ثبوتها فى مفلوك بعينه البتة لم يكن بعيدًا فلا يفيد المفلوك التعويل عليها. وأما حب المنة والترفع فليس شاملا إمامة الخلق ولا لمعظمهم لأن النفوس المستشرفة للمكارم والمعالى تأباه وتنفر عنه وإنما ذلك غالبًا ممن يصد عنه الإحسان تكرمًا وتطبعًا وتكلفًا لا طبعًا فهو من فساد جوهر الإنسانية وقولنا لا يكون غالبًا لأن الكلام فيمن يصدر منه الإحسان لا فى مطلق الإنسان فلا يجمل بالمفلوك جعله رأس ماله لأنه حينئذ يكون قد رضى بأقل الناس عددًا وأفسدهم جوهرًا. وأما حب ثالثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم فذلك يقتضى وضع المكارم فى الناس على البدل والنوبة وتعميم العطاء للنظير والأعلى والأدنى ويكتفى من الواحد بالشخص بالمرة والمرتين والثلاثة لأن الغرض إقامة الحجة وبسط المعذرة فلا يحسن أيضًا بمفلوك التعلق بمحسن هذا غرضه لأنه ماذا عسى أن يحصل من المرة والمرتين ولأن العطاء العام قد لا يصادفه لأن الاستدلال بالأعم على الأخص ممتنع. وأما جذب القلوب إلى الطاعة والمحبة والاستخسار فهو أيضًا مما لا يوصل مفلوكًا إلى غاية ولا إلى مطلب يؤبه له وقصاراه أن يوصله إلى مبادئ الخير لأن الغرض إقامة الحجة عليه واستعباده وذلك يحصل بأدنى مرتبة يمكن استعباد مثله بها. وأما إزالة مذمة البخل ووضره ونفرته فلا يختص بإفاضة الإحسان على المفاليك بل قد يحصل بتنعيم النفس وظهار بزتها وزينتها وبالبسط على العيال وضيافة النظير أو المساوى فى المنزلة. وأما إزاحة رقة الجنسية فتستدعى حالا غير مرضية تستنزل بها الرحمة زيادة على الفلاكة إذ الفلاكة الدائمة تعتاد وتؤلف فيضعف كونها طريقًا للرحمة وتلك الحال الزائدة تربو على الإحسان مرارها أضعافًا مضاعفة ثم إن رقة الجنسية من أمور الآخرة وفيه من البحث ما تقدم ولذلك كانت إزالة حب

الدنيا عن القلب من أمـور الآخرة وفيه من البحث مـا تقدم - وإذن تقرر أن الناس لا يبذلون منافـعهم وأموالهم بغـير غرض بل لابد لهم من غـرض إما عاجل أو آجل والمفلوك تمنعه الفلاكة عن المكافـأة على الإحسان بإحسان مثله وتمنعه أيضًا من الإخافة والأمور التى مرجـعها الآخرة لا تبقى ويكتفى ببعض أعمال الخيـر البدنية عنها وغيرها لا يخص مفلوكـا بعينه ولا يوصله إلى غاية يؤبه لها ثم إن ما سـوى رقة الجنسية أمور راجعة إلى الـباذل وحده فلابد فى المفلوك من تحريك بواعث الناس بأمر يرجع نفعه إليهم ويكون وصفًا للمفلوك نفسه ويدخل تحت قدرته دائمًـا لتبقى داعية الإحسان متـحركة دائمًا لا تسكن لقدرة المفلـوك على تحريكها كل وقت - فـبخـضوعه وتملقـه تظهر سـيادتهم وعزهـم ويؤمن كبـر المفلوك عليهم وتيـهه وصلفـه بإسعـافهم بمراده وببـسط أعذارهم يأمنون حـقده فيعـاودون الإحسان إليه وإن سلقـوه إساءة وأذى لأن الإساءة طبيعيـة للبشر للقوة الغضبية ولما أن فى القلب ميلاً للأخـلاق السبعية ولأن فى النفوس مـحاكـاة فى الشر ولأن دخول الشـر تحت القدرة أكـثر من دخول الخـير كالصـداقة والعـداوة والبناء والهدم والمفلوك مظنة للإسـاءة إليه لوجود المقتضى وانتفاء المانع فلابد أن تعمل الطبـيعة فيه عملها ولا دواء لهذا الداء إلا بسط الأعذار قال أبو الحوائر الواسطى:

دع الناس طرًا واصـرف الود عنهم ... إذا كنت فى أخـلاقـهم لا تسـامح

فشيئان معدومان فى الأرض درهم ... حـلال وخل فى الحـقـيـقـة ناصح

وقال بشار بن برد:

إذا أنت لم تشرب مـرارًا على القذى ... ظمئت وأى الناس تـصفو مـشاربه

وبالمبالغة فى الاعتذار إليهم يتجاوز عن تقصيره وقصوره وعجزه اللوازم للفلاكـة لأن للأغنياء شوافع من غناهـم عن ذنوبهم قد تغنيهم عن الاعـتذار

بخلاف المفاليك وبإظهار حبهم ومناصحتهم يجدون فيه روحًا ونفعًا راجعًا إليهم فيكون إسعافهم له بمراده من لوازم سيادتهم وراجع بالآخرة إليهم ولكون هذه الأمور أكثر إفضاء بالمفاليك إلى مقاصدهم تجد الأسافل ترتفع على الأعالى كثيراً لأن نفوس الأدنياء لا تأنف من الخضوع والتملق بخلاف الأعالى وقلما تخلو دولة من ذلك والسبب فيه أن الدولة إذا اقترضت تجد الأسافل ترتفع على الأعالى كثيراً لأن نفوس الأدنياء لا تأنف من الخضوع والتملق بخلاف الأعالى وقلما تخلو دولة من ذلك والسبب فيه أن الدولة إذا انقرضت وجاءت دولة أخرى فأصحاب الدولة الأولى يكونون فى نهاية سعادتهم ففيهم شمم وأنفة ومطالبة لصاحب الدولة الجديدة بحقوق لم يعطوه عليها ثمنًا بل هى مما أوجبها خدمتهم فى الدولة الأولى والوقت سيف والحكم للوقت ولصاحب الدولة الجديدة نصحاء ومتملقون وإن سفلت بهم المرتبة وسياسة الملك تقتضى تقديم من فى تقديمه نظامه وأبهته لا جرم ترتفع الأسافل على الأعالى كثيراً - اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك يا خالق الأسباب والمسببات والدواعى والبواعث والعزمات لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا وأشهدنا عظيم رحمتك حتى لا نرجوا أحداً سواك وتجل علينا ببالغ قدرتك حتى لا نخا أحداً غيرك اللهم إنك تعلم أن الخضوع لغيرك والتملق لسواك فوق صبرى وقاطع لظهرى لا يبلغه وسعى ويضيق عنه ذرعى فأغننى بك عما سواك يا رب العالمين آمين آمين.